المحاضرة 02 :

الجزائر بأعين الرحالة خلال فترة الاحتلال

-نقد وتحليل وقائع-

تمهيد :

نقل الرحّالة الذين توافدوا على الجزائر - طيلة فترة الاحتلال- واقعها حسب لون كُلّ نظرة وبغية هدف كل رحاله، فمنهم من وصف الحكم الفرنسي بالجزائر مشيدا بعدله الراشد أمثال الحسن بوعشرين، حين نظر إلى واقع الجزائري المسلم فوصفه بالوضع المريح المتميز بالرفاهية والاستقرار، ومنهم من تجاهل هذا الواقع أمثال "الصادق بآي (باي تونس) فلم يشر إليه ببنت شفة. ومنهم من نقل ووصف مأساة الجزائري المسلم بجلّ تفاصيلها وفي مختلف جوانب الحياة فيها، ومن أمثال هؤلاء نجد "مو باسان(Guy de Maupassant)، وكارل ماركس (Karl Marx)، و محمد فريد . فهل نقل هؤلاء الرحالة - باختلاف توجهاتهم وأهدافهم ومواقفهم من ادارة الاحتلال- هذا الواقع كما هو حقيقة؟ وهل كان وصفهم موضوعيا بعيدا عن الذاتية ؟ وهل كانت نظرتهم لهذا الواقع واحدة ؟ وفي الاخير هل أبدى هؤلاء مواقف واضحة من أوضاع تدعوا الى اصلاحها وتحسينها؟ ولابد أن نشير الى أن هذه الرحلات منها ما كان ذا طابع سياسي، ومنها الاستكشافي، ومنها الثقافي الفني. وعلى هذا اختلفت الاهداف كما اختلفت المواقف تجاه السياسة الفرنسية في الجزائر .

1 _الرحلة الصادقية : من بين الرحلات التي وصفت التواجد الفرنسي رحلة **محمد الصادق باي** (باي تونس) هذه الرحلة التي وصفها **أحمد بن أبي الضياف صاحب " اتحاف أهل ألزمان** مطلقا عليها عنوان"**الرحلة الصادقية**". حيث يصف صاحب الرحلة فيها وصول ركب الباي إلى ميناء الجزائر في 17 سبتمبر 1860، والذي هو نفس توقيت المتزامن مع وصول الإمبراطور الفرنسي **نابليون الثالث.** مع الإشارة إلى أنّ **الباي** لم ينزل من البارجة إلا عند الزوال أي بعد ثلاث ساعات من نزول الإمبراطور، علما أن المصادر الفرنسية لم تذكر هذه الرحلة التي نشرت في جريدة الرائد التونسي في 10أكتوبر 1877، بل نشرت بعد ذلك في كتيب من 23 صفحة

يذكر صاحب الرحلة أن عددا من الجنرالات قد زار **الباي** في مقر إقامته، في حين لم يكن في استقباله أية شخصية مهمة، مع العلم أنّ الباي هو الذي توجه إلى زيارة الإمبراطور - الذي استقبله هو وزوجنه وبحضور **ليون روش** « **Léon Roches** » - قنصل فرنسا بتونس- كمترجم بينهما، وعلى ما يبدو فإنّ هذه الرحلة لم يسفر عنها ما يجدر الاشارة اليه، وهي بذلك رحلة كسب الودّ وتقديم الولاء، وفي رحلة الإمبراطور الثانية سنة 1865 لم يكرر الباي زيارته للجزائر، بل اكتفى بإرسال أخيه **الأمير الطيب باي** إلى عنابة بحيث التقى الإمبراطور في اليخت في 6 جوان 1865، وتمّت دعوته إلى مائدة الغداء التي حضرها مطران تونس **الأب هوتر** (Hutter) وقنصل فرنسا

(دوشان دي بلكور) Duchenne de Bellecourd ، **والجنرال رافو (Rafo)** المترجم والجنرال **سليم والتاجوري** طبيب الباي. وربما كان موقف الباي من عدم استقبال الملك في الزيارة الثانية سنة 1865دليلا على شعور الباي بالإهانة و الاستصغار من طرف نابليون الثالث في لقائهما الأول ممّا استدعى ردة فعل في الزيارة الثانية واكتفاء الباي بإرسال الممثل كدليل اهتمام وتقدير وقبول تونس للحكم الفرنسي للجزائر ، طبعا مع بقاء هاجس الخوف من أن يكون مصير تونس هو نفسه مصير الجزائر, وحسب ناقل هذه الرحلة المؤرخ التونسي (ابن أبي ضياف) في كتابه "**إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**"، فإنّ هذه الرحلة التي قام بها **الصادق باي** كان الهدف منها التعبير لفرنسا عن صداقة وولاء أسرة البايات لفرنسا، وكان ذلك تحت تأثير القنصل الفرنسي في تونس "**ليون روش**"، ووزراء الباي الذين رأوا أن الأمر يدخل ضمن السياسة والمصلحة الواجب اعتبارها مع جار قوي. ولأجل التعبير عن الودّ والولاء فإنّ **محمد الصادق باي** سلّم **لنابليون الثالث** نيشان العائلة الحسينية (نيشان الدم)، الذي لا يسلم إلّا لأعضاء البيت الحسيني، وقد ردّ الإمبراطور بتقديم هدايا، ومنها نيشان **(Le grand Cordon de la légion d'honneur)** وهو مرصع بحجر الماس، معبرا بذلك عن قبول طلب الولاء، كما مثّل هذا من جهة أخرى اعتراف تونس بالتواجد الفرنسي في الجزائر ومنحه الشرعية، ولم يذكر في هذه الرحلة أي شيء عن واقع الجزائر، ويبدو أنّ ما كان يهم **باي** تونس هو ضمان أمن واستقرار تونس ولو على حساب الجارة والأخت الجزائر.

2 _ **رحلة الحسن بو عشرين** : إذا كانت رحلة **الصادق باي** قد تجاهلت واقع الجزائريين فإنّ رحلة **الحسن بوعشرين** والمعروفة برحلة **بوعشرين** الذي مثل السلطان **مولاي عبد العزيز** (1311-1325هـ/ 1894-1908م) و كانت هذه الرحلة والمسماة **بالرحلة السفارية** سنة 1903، قد تطرفت لمدح التواجد الفرنسي بالجزائر والثناء على منجزاته؟ وقد أشار الى ذلك من خلال قوله : "قد قدّمنا أن الدولة الفرنصوية لمّا حدث بالمغرب ما حدث اقتضى نظرها وصول كبيرها المسمى **بالبريزيدان** "Emile Loubet " لقطر الجزائر وتونس لاختبار الاحوال هناك، و أنّ السلطان وجّه وفدا من قبله لملاقاة البريزيدان بالجزائر " وتهنئته على وصوله للجزائر بسلامة وعافية أداءً لحقوق المجاورة التي حث الشرع على المحافظة عليها، والقاء زمام المواصلة اليها".

بدأ صاحب الرحلة مصنفه بقوله: "أقحمت نفسي لنيل هذا الغرض، وقمت ببعض ما له من الحق المفترض، اقتداء بمن سلف من الأعلام". وقد وردت هذه الرحلة في الباب الرابع من كتابه "التنبيه المعرب عمّا عليه الآن حال المغرب" الذي قدمه وصححه "**المؤرخ محمد المنوني**"، فمدح وشكر السلطان الفرنسي والسلطات الفرنسية لما رآه من انجازات وأعمال راقته وأعجبته، بل - وأكثر من ذلك- أبهرته، ويظهر ذلك مثلا في وصفه وصول وفد السلطان المغربي الى ميناء الجزائر قائلا :" أرسى بنا في مرسى الجزائر، فظهرت لنا المدينة في حسنها وبهجتها كالعروس تجلت من خدرها وقعدت على منصتها. وعاينا بالمرسى من المراكب الحربية والتجارية لجانب الدولة ولغيرها من الدول ما قضينا منه العجب كثرة واتقانا وحسنا لا يحتاج برهانا.

وكل هذه المراكب الحربية إنّما جاءت لملاقاة **البريزيدان** ممّن جاور الجزائر من الدول والسلام عليه وتهنئته على الوصول لذلك القطر، إذ لم يكن رآه قبل - على ما قيل " ، وقد واصل وصفه لما رآه في الجزائر ، فهو يذكر طرقها قائلا: " أما الطرق على كثرتها وامتداد فروعها في داخل البلد وخارجها الى حيث انتهت فكلها مستوية نقية

ومتسعة جلية، مفروشة بالحجر المنحوت والمصنوع على هيئة الياجور في الانبساط والكيفية، وكل عمالة الجزائر كيفما امتدت واتسعت على ذلك المنوال، كثيرة الأشجار ممتدة الضلال".

وفي أثناء حديثه على المؤسسات الدينية نجده يصف المساجد والصلاة فيها قائلا:" في يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر صلينا صلاة الجمعة بالمسجد الجامع الكبير ،وحضرنا الخطبة والأذان ورواية حديث الإنصات، فيؤذنون فيه أولا آذانا وأحدا، ثم يروون الحديث، فيقولون فيه _روى إمامنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت، ومن طريق آخر، ومن مسّ الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له، انصتوا رحمكم ألله ثم يقوم الخطيب للخطبة الأولى ثم الثانية، ثم ينزل فيصلى ويقول في محل الدعاء للإمام اللهم أيّد من أيّد هذا الدّين وارفع درجته في عليين ثم قال: "بعد الصلاة مشينا لزيارة الولي الصالح **سيدي عبد الرحمان الثعالبي**، ثم رجعنا ودخلنا للجامع الجديد وهو للحنفية (بعد إقامة الجمعة بالمسجد الجامع الكبير)، رأينا فيه من البهجة والرونق ما يروق الناظرين، وعاينا النصارى يدخلون للمساجد رجالا ونساء، لكن بأدب ووقار ثم رجعنا لمحلنا".

كان هذا عكس ما ذكره **محمد فريد خلال** رحلته إلى الجزائر التي تزامنت مع رحلة **بوعشرين** تقريبا إذ قال: "الجوامع في وهران حولت كلّها إلى كنائس أو مخازن، وليس في المدينة سوى زوايا صغيرة لإقامة الصلوات، وحسب شهادة مفتي جامع وهران **سيدي علي بن عبد الرحمن** فانّ العلوم الإسلامية في تأخر مستمر والأهالي لا يقبلون على طلب العلم، ويبدو أنّ ما رآه **بوعشرين** من إقبال النصارى رجالا ونساء على المساجد إنّما كان في الواقع إقبال على المساجد التي تحولت إلى كنائس. فهل كان ممثل السلطان المغربي يجهل حقيقة ما ارتكبته سلطات الاحتلال في حق مقدسات المسلمين في الجزائر ؟ أم أنّه تعمّد هذا الوصف إرضاء لفرنسا وسلطانها، ثم حفاظا على سيادة المغرب من خلال إبعاد الخطر عليها ولو على حساب الجزائر بإخفاء وتزييف الحقائق ؟

وممّا ذكره **بوعشرين** أيضا، إعجاب أعضاء الوفد بطبيعة الجزائر الجبلية التي تتخللها سهول خصبة ومباني متصلة، وأشار إلى وجود تشابه بينها وبين حاضرة فاس، فيقول "وتلمسان ونحوهما – ومسافة مابين وهران والجزائر ببابور البر (القطار) نحو اثنتي عشرة ساعة، وهي خمسة عشر يوما بالتقريب، واستثنى من ذلك المواقع السبخة والصلبة ذات الحجر الصلد فإنّها تبقى لرعي البهائم.

والملفت للانتباه فيما نقله بوعشرين ودوّنه في الرحلة السفارية إغفاله الحديث عن واقع وظروف الجزائري المسلم بل اكتفى - بشكل عام بوصف الطبيعة والتركيز على نقل كل ما تعلق بسلطات الاحتلال، وقد أفرط في المدح والثناء على ادارة الاحتلال، وأعطى من خلال وصفه الانطباع بأنّه يكرس شعار فرنسا "الجزائر فرنسيه ويكاد المرء يشكّ في معرفة صاحب الكتاب أنّ للجزائري المسلم وجود.

ولعل ما يدفعنا إلى التشكيك في ما نقله بوعشرين عن الجزائر ونذهب إلى القول أنه أخفى أو تغاضى عن الكثير من الحقائق هو ما جاء من وصف غريب للحملة التي قادها الامبراطور الالماني على المغرب الأقصى والتي اشار اليها على أنها رحلة سياحية، فقال في ذلك :"وفي أواسط محرم عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ورد الخبر للدولة بأنّ سلطان الالمان خرج من بلده للسياحة، وأنّه عازم على الوصول إلى طنجة في الرابع والعشرين من الشهر

المذكور، فصدر أمر السلطان لكبراء طنجة بالاحتفاء به ما أمكن، وبيّن لهم وجه العمل في أمره....وردّ سلطان الألمان في اليوم المذكور، وصادف يوم جمعة، فضربت المدافع لأجله برا و بحرا، وجاء المسلمون أهل تلك الناحية إلى المرسى، وضربوا بارودا كثيرا خارجا عن القياس حتى اصطكت به الآذان وتضعضعت الجبال." .

ولأجل تفسير هذا الكلام نتساءل هل يعود سببه إلى كون السلطان كان لا يدرك نوايا وأهداف المانيا التوسعية؟ أم أنّه كان يدرك ذلك وأراد القرب من الالمان مثلما فعلت الدولة العثمانية في إطار التقارب العثماني الالماني؟ أم مردّ ذلك سوء تقدير العواقب؟ هذه العواقب التي ستتأكد بانعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء 1906، والذي سيتمّ فيه تقسيم المغرب الاقصى رغم ما قدمته وما ستقدمه من تنازلات، أم أنّ صاحب الرحلة السّفارية تعمّد إخفاء ما يحدث تمجيدا لسياسة السلطان الرشيدة_.

3 _ **رحلة خليل جركش شيخي زاده** : وهي المعروفة برحلة مثقف تركي، وأول ما يلفت الانتباه إشادته - أثناء حديثه عن المساجد- بنظافة الجامع الكبير في قسنطينة، وذكره بأنّ مساجد الجزائر كانت أكثر نظافة من جامع الأزهر، في نفس الوقت يذكر الرحالة مدينة قسنطينة، فيشير إلى أنها وسخة مثل شوارع اسطنبول - التي صارت واردتها مغنما بيد نظام بوليسي **ويقصد بذلك السلطان عبد الحميدالثاني** ثم عقّب بأنّ المدينة- لو كانت بيد الانجليز لكانت أعظم مدن العالم-.

كما أشار نفس المثقف إلى نفس ما ذكر "**بوعشرين**" في رحلته السّفارية إلى دخول الفرنسيين المساجد قائلا: "العرب تعودوا على دخول الفرنسيين المساجد حتى أنّهم لا يبالون إذا رأوا رجلا يدخل بحذائه الملوث بأوساخ الشوارع، غير أنّ بوعشرين أشاد بدخول النصارى المساجد رجالا ونساء لكن بأدب ووقار، ممّا يطرح التساؤل فيما يخص التثبت من الوصف ومصداقية الخبر وردّ فعل المسلمين عصرئذ.

وصف نفس الرحالة التركي مدينة سكيكدة (**فليب فيل**) بأنّها مدينة بناها الفرنسيون، لتكون مرفأ لهم، وتستغل في الاتصالات البحرية ؟ ثمّ يعود ليقول بأنّها مدينة بنيت على أراض انتزعت من المسلمين، وهي مدينة لا تمت بصلة للمدن الشرقية والأراضي المحيطة بها جد خصبة اشتراها الفرنسيون من أصحابها بأثمان زهيدة، وقد أخذ المستوطنون أثار المدينة واستعملوها في بناياتهم الجديدة (بحجارة الملعب القديم والمتحف الروماني الصغير) وذلك دليل على ما نسبت لهم من بعض الكتاب الأوروبيين من أعمال التخريب.

4_ **رحلة محمد فريد:** ركز معظم الرحالة على وصف المدن وأحوال سكانها في الغالب، حيث يذكر **محمد فريد** مثلا مدينة تلمسان – في بداية زيارته للجزائر - واصفا إياها بالمدينة المهمة في الجزائر وأنّ فيها الكثير من العلماء والتجار وأصحاب الثروات. كما وصف سكان مدينة تلمسان التي وصلها في 4 أوت 1901 على متن القطار بأنّهم حذرون أشد الحذر من مقابلة إخوانهم القادمين من الأقطار الأخرى، وكل مسلم يدخل الجزائر مراقب أشد مراقبه، وخصّ التركي والمصري منهم. كما ذكر لقاءه بالقاضي **"شعيب بن عبد الله** على أنه أحد المثقفين المعتمدين بتلمسان وعموم الجزائر.

أما عند وصوله إلى مدينة وهران التي و صفها بالمدينة العصرية الشبيهة بالمدن الأوروبية، فيذكر طرقها المائلة والممهدة لسير عربات الخيول وعربات الترامواي الكهربائي، ولكنّه يشير بأنّ المستفيد الوحيد من خدماتها هم الأوربيون، وكل من بها من العرب شيالون (حمالون في المينا) أو خادمون عند ألأوربيين أو أصحاب حوانيت حقيرة، فلا يوجد بينهم تاجر عظيم أو متوسط ولا صاحب معمل ولا موظف، فحالهم في تأخر مستمر والفقر في زيادة والتعاسة في نمو. كما يشير إلى وضعية الزائر الأجنبي على أنّ دخوله مدينة وهران ليس سهلا، إذ لابد من تقديم جواز سفر عليه تأشيرة القنصل الفرنسي المعتمد في بلاد الجزائر والتشديد خاص بالمسلمين. أمّا عن مدينة الجزائر فقد ذكر بأنّها مثل المدن ألأوربية، والأحياء الشعبية بها لا تزال على الحال التي كانت عليها قبل الاحتلال ممّا يعكس الممارسات العنصرية للاستعمار.

أرجع الكثير من الرحالة حالة الجزائر المتدهورة وظروفها القاسية إلى آفة الاحتلال، كما أشاروا إلى السلوك الاستعماري المنافي لادعائهم نقل الحضارة الغربية والعلم الحديث إلى الشعوب الأخرى، وإلى زيف ادعائهم وتغنيهم بحقوق الانسان والمواطن، وهذا ما أشار إليه الرحالة التركي "**خليل خالد**" بقوله " هناك عدد من المؤرخين في أوربا لا يستحون عندما يبررون أكثر الأعمال وحشية باسم المدنية، ولذلك فمن الطبيعي أن ينظر بتعجب إلى التفسير الذي قدمه **ادواركات** الذي دعم محارق فرنسا، ووقف مدافعا على **بيلبيسية**"، ووصف "**كارل ماركس** في الرسائل التي أرسلها إلى صديقه **إنجليز** العديد من الأحداث السياسية ومنها وصفه لإعدام الفرنسيين لأحد الثوار حيث تحول إعدامه من إعدام ثائر إلى إعدام لص.

والملاحظ أنّ **كارل ماركس** لم ينقل في رسائله واقع الجزائري المسلم وفق ما شاهد، ونفس الشّأن بالنسبة للأديب الفرنسي "**فيكتورهيغو**" الذي عرف بصمته المريب عن سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر بالرغم من شهرته بالدفاع عن الطبقات الكادحة. والمعروف أنّه زار الجزائر أواخر القرن 19، وتزامنت زيارة هذا الأخير مع مقاومة **الشيخ بوعمامة(1881)**، لكن لم يعرف له موقف يستنكر فيه السياسة الاستعمارية ما عدا القصيدة التي يصف البؤس في الجزائر في اطار حديثه عن معاناة الطبقات العمالية مشيرا الى المرأة الجزائرية التي تأكل صغيرها بسبب الجوع، والقصيدة بعنوان (**Misère**).

ذكر **محمد فريد** بأنّ المسلمين في الجزائر كانوا يعاملون بقوانين خاصة – قانون الأهالي وهي في غاية الشّدة والصّرامة، وهم محرومون من الكتابة والاجتماع والسفر والتنقل ومطالعة الكتب والجرائد. وما هو مسموح في فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات، حتى أنّ حكم القاضي بالبراءة على شخص ما لا يعفيه من السجن بدعوى الحفاظ على الأمن العام. وهذا ما أكّده الرحالة **الفريد كيمبنر** في قصيدته التي جاء فيها:

حي العرب المحيط بالبرج تضاءل

بيضاء كانت هذه المدينة

عندما تركتها

وحمراء اراها الآن

في غضون عشرين عاما

جاء اليها أكثر من خمسين ألفا

بنوا بيوتا لها سطوح قرميدية حمراء

تركتها مدينة إفريقية ..... والآن

الآن أصبحت أوروبية

أهل الجزائر كانوا حتى مئة عام مضت

قراصنة شديدي القسوة

والآن هم محكومون

تغيروا مثل غيرهم من الشعوب الاخرى

ربع المساحة أخذها المستعمر

والباقي في اليد الجزائرية

وما هو هذا الباقي

أرض قفرة

كروم صخرورمل

شعب نبيل تخلف

غير أنّ هذا الرحالة حمّل جزءً من المسؤولية فيما يحدث للجزائري المسلم يقول في ذلك: "الجزائريون يتحملون جزءً كبيرا من أسباب وجود الفرنسيين على أراضيهم، فهم خاملون، ويبدون راضين بالقليل، والأخ إذا اضطره الأمر يخون أخاه من أجل غرض يريده لنفسه، على رغم أنّهم ليسوا جهلة مثلما كان يروجه الأوربيون بشأنهم".

ومن أكثر ما أثار انتباه الرّحالة - بالإضافة إلى تردي الواقع ألاجتماعي- واقع التعليم، فأغلبية هؤلاء وقفوا عند الواقع التعليمي للجزائري المسلم ، ووصفوه بالمتخلف والسيئ ، إذ يذكر **محمد فريد** أنّ تردي التعليم أثار استياء حتى بعض الفرنسيين أمثال "**ادموند دوتى**" (**Edmond Doutté**)، الذي نادى إلى توحيد طريقة التعليم في الجزائر. وقد وصف **محمد فريد** التعليم في الجزائر قائلا: "حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جدا، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلّت اللغة الفرنساوية محل العربية في جميع المعاملات، بل ربما تندثر العربية وبالمرة مع مضي الزمن، فلا الحكومة تسعى إلى حفظها، ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس لمنعها أي اجتماع خوفا من أن تشغل جمعياتهم بالأمور السياسية وهي حالة تخالف ما عرف به الفرنساويون في نظره - من أنهم رجال العلم والنور والحرية وناشرو ألوية العرفان ؟؟

وقد ذكر الرحالة التركي - من باب المقارنة - أنّ الانجليز في مصر والسودان أدخلوا اللغة ألانجليزية لكنهم لم يلغوا اللغة العربية فيهما، في حين أنّ التعليم في الجزائر محارب، فاستعمال الفرنسية أو العربية شيء واحد في مجتمع يعيش أغلبه في الجهل، بحيث إذا أظهرت للجزائريين سطرا مكتوبا باللغة العربية التي يتحدثون بها فإنهم لا يعرفون من كلماته شيئا، ويقولون عن حرف الألف بأنه عمود وعدد كبير منهم يقرؤون ويكتبون بالفرنسية، كل ذلك في وقت كان بعض الرّحالة ينادون بضرورة أن ينصب الاهتمام بالعلم الذي هو أساس لكل نهضة، وقد أكّدوا على أهمية تعليم الأجيال، وهذا ما سيؤدي إلى امتزاج الجزائريين بالفرنسيين، وبعد زمن يصيرون كذات واحدة.

لقد كانت سياسة مصادرة الممتلكات، وهجرة أهل العلم وأصحاب الثروات إلى خارج الجزائر، ووضع إدارة الاحتلال يدها على الأوقاف سببا مباشرا وعميقا في تدمير المؤسسات التعليمية والثقافية، وهذا ما ذكره **توكفيل** عند وصفه واقع التعليم في الجزائر حيث ذكر في أحد تقاريره - بعد زيارته للجزائر سنة 1847- قائلا : **" لقد استولينا في كل مكان على الأموال _ أموال المؤسسات التي غرضها سدّ حاجيات الناس، والقيام على التعليم العام، وذلك بأن حولناها جزئيا عن استعمالاتها السابقة، وانقصنا المؤسسات الخيرية وتركنا المدارس تتداعى، وبعثرنا الحلقات الدراسية. لقد انطفأت الانوار من حولنا. وتوقف توظيف رجال الدين ورجال القانون . وهذا يعني أنّنا جعلنا المجتمع الاسلامي أشد بؤسا وأكثر فوضى وجهل وأكثر همجية بكثير ممّا كان عليه من قبل أن يعرفنا".**

وحسب **محمد فريد** أصبحت الجزائر مرتعا للجهل بتواري التعليم الديني من المساجد وسوأها باستثناء القلة القليلة التي سافرت لطلب العلم في جامع الأزهر وغيره من دور العلم في الحواضر العربية والإسلامية. وأنّ التعليم العصري لا وجود له بين المواطنين وهذا باعتبار أنّ المحتل فتح مدارس لتعليم أبنائه اللغة الفرنسية دون العربية، كما أنّ الجزائريين كانوا يعزفون عن تعليم أبنائهم في المدارس ألفرنسية، ولأنّ الظروف المعيشية الصعبة التي كان يعانيها الجزائري جعلته يفضّل توجيه أبنائه للشغل، وخاصة في الحقول بدل إرساله إلى المدارس التي ستجعله متفرنسا. وهذا ما أكدته **ايفون توران** في كتابها (affrontements culturels).

صادر الاحتلال جميع الأوقاف المحبوسة على المساجد والزوايا ولأضرحة، ومنع الجزائريون من تشكيل جمعيات خيرية تساعد على بناء دور العبادة أو تجديدها، وكذا بناء المدارس للتعليم العربي الحرّ الذي شددت عليه أيادي الاحتلال، وضيقت على المسلمين. فابتداءً من القرن العشرين كانت تفرض رخصا لفتح المدارس، وهذه الرخص كان نادرا ما تمنحها الادارة.

ومن المفارقة أنّنا نسجل عند "**بوعشرين**" في "**الرحلة السفارية**" عكس ما ذكره غيره من الرحالة فيما يتعلق بالتعليم، إذ يقول:" ومن جملة حزمهم واعتنائهم أنّهم يقرؤون كلهم ويكتبون رجالا ونساء وأطفال، وقد رأيت المرأة بالحانوت مع زوجها تكتب له وتقرأ وتقيد المبيعات والأثمان، قد كفته الهمّ في ذلك، وزوجها إنّما يبيّن لها الأسوام، رغم أنّها عالمة بها، لكنّها من أدبها معه وحسن عشرتها أنّ لا تستبد عليه، وكلهم على ذلك المنوال، وعندما تقرأ هذا الوصف تشعر وكأنّنا في جزائر مرحلة تاريخية أخرى غير فترة الاحتلال التي اعترف بجرائمها الفرنسي قبل غيره،

دوّنها في كتاباته. ونظن أنّ بوعشرين قد أسقط واقع المرأة في المغرب الأقصى على واقع المرأة الجزائرية التي سبق وأن أشرنا إلى ما ذكره الأديب الفرنسي فيكنور هيقو على أنه وصل بها الأمر الى حدّ أكل صغيرها ؟

أشار الرحالة التركي إلى انتشار استخدام اللغة الفرنسية في الشوارع والأحياء التي يسكنها العرب وفي المدارس والمحاكم الشرعية - في عقود الزواج والطلاق وغيرها- والهدف من ذلك هو فرنسة الجزائر. وهذا طبعا بعد صدور قانون الحالة المدنية والالقاب 23مارس1882 والمثير للانتباه - من خلال ما ذكرناه كنماذج للرحلات- أنّ الرحلة التي قام بها "**بوعشرين**" إلى الجزائر "**الرحلة السفارية**" قد ركزت على الجانب الرسمي الديبلوماسي، لذلك جاء فيها المدح والثناء، ولم يظهر من خلالها ذكر لواقع ألجزائريين، شأنها في ذلك شأن الرحلة الصادقية "**رحلة الصادق الباي**". ويبدو أنّ ناقوس الخطر قد دقّ عند الجارتين تونس والمغرب منذ بداية الاحتلال، لذلك سعى حكامها الى كسب ودّ الاحتلال الفرنسي، ولو على حساب المبادئ والعلاقات التي كانت دائما تربط الشعوب ومن أهم المقتطفات التي أخذت من وصف "**بوعشرين**" ما يلي:

" في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا لها وما فيها من البهجة والرونق وكل مايشتهي" وجاء في الديباجة:

"وقد قدمنا أن الدولة الفرنصوية، لما حدث بالمغرب ما حدث اقتضى نظرها وصول كبيرها المسمى ب "البريزيدان" لقطر الجزائر وتونس لإخبار الاحوال هناك، وأنّ السلطان وجه وفدا من قبله لملاقاة "البريزيدان" بالجزائر، حيث الجزائر مجاورة للمغرب، فعين لذلك أمينه الأبر الأجل السيد "بناصر غنام الرباطي وعينني معه، وقد قيدت تقييدا فيما وقفت عليه من أحوال الجزائر". ثمّ ركز **بوعشرين** في رحلته على وصف استقبال الرئيس الفرنسي، وكذا طريقة استقبال فئة من الجزائريين له قائلا: **"استقبلت مدينة الجزائر في احتفال كبير رئيس فرنسا، شاركت في هذا الاحتفال مراكب مختلفة الأجناس بطلقاتها المدفعية الكثيرة، المراكب الحربية التي جاءت لملاقاة البريزيدان ممّن جاور الجزائر من الدول، والسلام عليه، وتهنئته على الوصول لذلك القطر".** ثمّ وصف استقبال الأعيان لهم قائلا: **"دعانا أعيان البلد للحضور في وليمة جعلوها للبريزيدان وللأعيان بمدرسة فسيحة بالبلد، فذهبنا إليها والقبطان معنا وكذلك الترجمان، وهو رجل لبيب أديب يعرف اللسان العربي معرفة متقنة، وله خبر بلغة العرب واطلاع على تواريخ المسلمين، وملوكهم وعوائدهم ومألفاتهم ونفع وحمدت سيرته".**

كانت رحلة "**بوعشرين**" قبل ثلاث (3) سنوات فقط من ظهور أزمة المغرب الأقصى والتي حاول الغرب الأوروبي فرنسا بريطانيا ألمانيا اسبانيا) حلّها عن طريق عقد مؤتمر "**الجزيرة الخضراء** سنة 1906، وابتداءً من هذا التاريخ تتضح أطماع الدول الغربية في المغرب الأقصى وتبدأ فرنسا في التحضير لإلحاقها بالجزائر لتستكمل بذلك السيطرة على كامل الشمال الإفريقي. ولم تشفع مساعي النظام المغربي بالتقرب للسلطات الفرنسية مثلما لم تشفع هذه السياسة لتونس سابقا.

استمرت السياسة الفرنسية على حالها في الجزائر حيث بقي الجزائري المسلم يعاني ويلات الاستعمار دون أن يجد من يوصل صوته وأنينه و آهاته إلى الجهات التي ظاهرا وشكلا تمثله، ولكن في الواقع لا وجود لها، فطيلة القرن 19 ومطلع القرن 20 لم تتحرك السلطات الفرنسية بمختلف مؤسساتها بما فيها البرلمان للنظر في واقع الجزائري المسلم، ولم نجد التماسا من حكام الدول الجارة المغرب وتونس لصالح الجزائريين لدى فرنسا أمام

استمرار سياسة التضييق والقمع وقد ذكر **محمد فريد** أنّ سياسة التضييق والقمع لا يمكن أن تستميل الأهالي إلى جانب الحكومة، بل على العكس، فهي تعمق رو ح العداء والنفور بين الاحتلال والمحتل.

ختاما لابد من التأكيد على أهمية أدب الرحلة كمصدر من مصادر تدوين تاريخ الجزائر خلال فترة الاحتلال . إذ من خلال هذه الدراسة لاحظنا أنّ ما دوّنه هؤلاء الرحالة بمختلف توجهاتهم ومواقفهم من التواجد الفرنسي في الجزائر أولا، والسياسة التي انتهجتها فرنسا ثانيا، وأسلوب تعاملها مع سكانها خاصة المسلمين منهم ثالثا يحتاج إلى مزيد من التدقيق والتمحيص، على اعتبار أنّ هؤلاء هم شهود عيان دوّنوا شاهداتهم، ونقلوا واقع الجزائر وحدّدوا مواقفهم من هذا الواقع، بين مؤيد ومدعم للسياسة فرنسا في الجزائر، ومتحفّظ لأسباب قد تكون شخصية أو تقتضيها طبيعة الموقع و المنصب.

لابد من التأكيد مرة أخرى على قيمة هذه المادة التاريخية في كتابة صفحة من أهمّ صفحات تاريخ الجزائر، ألا وهي مرحلة الاحتلال لكن دون إغفال اعتماد آليات ممنهجة في كتابة التاريخ مركزين فيها خاصة على تحري صحة المعلومة، ويكون ذلك بالتدقيق في تفاصيل ما نقله هؤلاء الرحالة ذلك لأننا نعلم بأنّ كلا منهم كتب وفق انتماءاته وميولا ته وأهدافه، وهذا ما يفرغ المادة - في كثير من الأحيان - من الموضوعية ويجعل الذاتية وعاء لها، وقد لاحظنا ذلك من خلال النماذج التي تمّ استعراضها في هذه الدراسة، بحيث وجدنا أنّ هؤلاء الرحالة يشيرون إلى ظواهر كل بأسلوبه وطريقته، والتمسنا في كثير من الأحيان التناقض بين ما ينقله هؤلاء، ونذكر على سبيل المثال وصفهم لواقع الفرد الجزائري المسلم(الأهلي) ووصفهم لحالة المساجد وغيرها...، وهذا طبعا لا يقلّل من شأن هذه المادة التاريخية العلمية، بل على العكس يزيدها قيمة، ممّا يدفعنا الى التركيز على دراستها واستغلال ما فيها من أحداث، لنقل واقع الجزائر والفرد الجزائري في ظل إدارة الاحتلال، ومن ثمّ كشف حقيقة السياسة الفرنسية تجاه الجزائري المسلم.

إنّ أدب الرحلة شهادة حية من الشهادات التي ينبغي العناية بها عند الكتابة عن ماضي الجزائر، ولكن بانتباه كبير وفق نقد وتحليل عميق، بما يفرز الواقع حقيقة باستعمال مقاربات أخرى، كفيلة بتوضيح الصورة التي يقدمها هؤلاء الرحالة الشهود عيانا .

رابط المقال

https://www.asjp.cerist.dz/en/article/179692